إثبات نجاة والدي الرسول ﷺ باللغة والمنقول والمعقول

تأليف

أ.د/ عمر بن سراج أبورزيزة
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

د. محمد عبدالغني القميري
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، المبعوث رحمةً للعالمين وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه دراسة موجزة لقضية أسهب جمع من العلماء قديماً وحديثاً في تناولها والخوض فيها، وكانوا بين قائل بنجاة والدي الرسول بل والحكم بأنهما من أهل الجنة، وآخرين يقولون بأنهما يمتحنان ضمن أهل الفترة يوم القيامة فإن أطاعا دخلا الجنة، وإلا دخلا النار، وآخرين يرون أنهما ماتا على كفر فاستحقا جزاء الكافرين. وراح كل فريق يجمع الأدلة المؤيدة لما يقول.

ولم يعدم كل فريق من الأدلة ما يعضد رأيه، وما به يرد قول الآخرين ويفند أدلتهم، وكأن جميع هؤلاء قد أغفلوا أنهم يحاربون في غير ميدان، فهم قد عنوا قلوبهم وشغلوا نفوسهم بأمور لا يملك أحد البتّ فيها، لأنها أمور إلهية بحتة. إن أمور الحساب، والثواب أو العقاب أمور اختص الله بها نفسه. وكأننا بهؤلاء لم يقرؤوا قول الحق تبارك وتعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)[1]. إنه لا حرج على فضل الله، ولا حصر لمشيئته، فهو فعال لما يريد، فما كان لله يجب أن نتركه له، ولا نتدخل فيه لضعف بصائرنا، وقلة علمنا (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).

على كل حال نقول لقد تناول العلماء هذه القضية في كثير من كتب التفسير والحديث وغيرها من المصنفات ، ومن يقرؤها يجد فيها كثيراً من التكرار لأن الآيات والأحاديث محل البحث هي هي.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٠.

وقد أفرد لها الإمام السيوطي – رحمه الله – ست رسائل علمية[١].

ونظراً لأن هذه القضية قديمة جديدة فإننا لا نعدم بين فينة وأخرى سؤالاً لسائل في وسائل الإعلام، أو فتوى لعالم يجيب سائلاً عن مصير أبوي الرسول صلى الله عليه وسلم. ونظراً لأن معظم ما ألف من الكتب والرسائل التي تناقش هذه القضية غير متاح لقدم معظمها، أو لوجودها في قطر إسلامي دون غيره، فإننا نقدم على عرضها بإيجاز نرجو أن يكون وافياً بالمراد. والله نسأل أن يمنحنا العون والتوفيق.

دوافع الدراسة:

لم نجد – فيما قرأنا – لصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اهتماماً بهذه القضية موضوع الدراسة، ولا حتى التابعين، في حين اهتم الجميع بسيرة سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : نسبه، ومولده، ونشأته، وشمائله، وسننه الفعلية والقولية وغزواته وغير ذلك من الجوانب التي شملت حياته كلها بحيث لم يتركوا زيادة لمستزيد. ولعل في هذا الصنيع ما يدل على أنهم تركوا الحديث عن مصير والديه – صلوات الله وسلامه عليه – حيث لا فائدة دينية أو دنيوية تعود على متقصّيها. لكن نظراً لأن الكلام فيها يظهر بين فترة وأخرى، ونظراً لأن العلماء في عصرنا انقسموا حيالها إلى ثلاثة فرق، فريق يرى أنهما ماتا على الشرك، وآخر يرى أنهما من أهل الفترة وثالث أن الله أحياهما فأسلما، وظل أصحاب هذه الآراء يسيرون في خطوط متوازية لا تلتقي؛ لأن كلاً منها ينطلق من خلفية ترفض

(١) عنوانات هذه الرسائل : ١ – مسالك الحنفا في والدي المصطفى. ٢ – الدرج المنيفة في الآباء الشريفة. ٣– المقامة السندسية في النسبة المصطفوية. ٤ – التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة. ٥ – نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين. ٦ – السبل الجلية في الآباء العلية. وقد نشرتها دار إحياء العلوم ببيروت مع ثلاث رسائل أخرى للسيوطي تحت عنوان : الرسائل التسع للسيوطي.

الآخر، فهو رافض لما يأتي به المخالفون حتى من قبل أن يقرأ لهم. من هنا رأينا أن نضع بين يدي القارئ المسلم دراسة مختصرة تمكنه من تكوين فكرة متوازنة عن الموضوع، فالمسألة ليست انتصاراً للرأي على حساب الصواب، ولكن تجنيد كل الإمكانات للوصول إلى الصواب حتى لا يتوه القارئ بين الأقوال والردود، والأدلة وتفنيدها وغير ذلك.

سائلين الله – عز وجل – أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يضاعف لنا الأجر والثواب.

منهجية الدراسة:

اتبعت الدراسة منهجاً استقرائياً غير انتقائي، حيث وضع الدارسان آراء العلماء الأقدمين على مائدة البحث، متجردين من أي اتجاه مذهبي أو فكري ينتحي بالبحث يميناً أو يساراً، للوصول في القضية إلى رأي معتدل. ولا يعنينا بعد ذلك إن جاء ما نقول مؤيداً لهذا أو ذاك، أو آخذاً من هنا ومن هناك. وقد أفادت الدراسة من توظيف الجانب البلاغي في ترشيح وبلورة المراد بالنص الشريف محور هذه الدراسة. وهو قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – للأعرابي " إن أبي وأباك في النار" وذلك حينما سأله الأعرابي في الحديث الذي رواه مسلم عن أنس – رضي الله عنه – الذي نورده بعد.

إن أبي وأباك في النار

عبارة في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم اختلف الناس في مفهومها ودلالتها، وسنعرض في هذه الدراسة للبحث عن مدلولها عند كل فريق، ثم نعرض ما نختار مدعوماً بالأدلة من خلال ما تتيحه لنا لغتنا الثرية في فهم دلالات التراكيب.

أما عن الحديث الذي اشتمل على هذه العبارة فقد رواه الإمام مسلم وغيره من حديث أنس رضي الله عنه : " أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال في النار، فلما قفى دعاه، فقال : إن أبي وأباك في النار "[١].

قال النووي في" شرح مسلم: (فيه (أي في هذا الحديث) أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم –. وقوله صلى الله عليه وسلم إن أبي وأباك في النار هو من حسن العشرة للتسلية بالاشتراك في المصيبة)[٢].

وروى البيهقي في دلائل النبوة قال: عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال قبرنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجلاً فلما رجعنا وجاذبنا بابه إذا هو بامرأة مقبلة لا نظنه عرفها، فقال يا فاطمة، من أين جئت؟ قالت: جئت من عند أهل هذا الميت رحّمت إليهم ميتهم وعزّيتهم. قال: فعلك بلغت معهم الكدُى قالت: معاذ الله أن أبلغ معهم الكدى، وقد سمعتك

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٣٤٧ كتاب الإيمان، ص ٧١٦، موسوعة الحديث الشريف بإشراف ومراجعة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، ط. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، بدون تاريخ، ورواه أبو داود وأحمد، وابن حبان والبيهقي وأبو يعلى، والبزار.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٧٩/٣، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٢م، ط. ثانية.

تذكر فيه ما تذكر. قال لو بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك". والكدى: المقابر. قلت: جدّ أبيها: عبدالمطلب بن هاشم. وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة، وكانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا، ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام، وأمرهم لا يقدح في نسب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، لأن أنكحة الكفار صحيحة، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم، فلا يلزمهم تجديد العقد، ولا مفارقتهن؛ إذ كان مثله يجوز في الإسلام"[١].

إن الإنسان ليحار وهو يقف أمام هذا الحديث وشروحه وتعليق بعض العلماء عليه، وكثيراً ما تحادث الإنسان نفسه أليس محمد صلى الله عليه وسلم أحب خلق الله إلى الله، والحبيب لا يرضى لحبيبه الحزن والأسى؟ ثم أليس الوالدان أحب الناس إلى ولدهما؟ ومعلوم أن الرجل يغار لأبيه ويؤذيه ما يؤذيه[٢]، ثم ألا يبلغ الحزن بالرسول صلى الله عليه وسلم مبلغاً عظيماً حين يكون مثوى أبويه أو أحدهما النار؟ أليس الشرك رجس والمشركون نجس؟ أو لم يخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنه ظل ينتقل في الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى كان في أبويه الطيبين عبدالله وآمنة؟. وماذا نقول في حديث مسلم عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ١٩٢/١، ١٩٣، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م/١٤٢٣هـ، وحكاه عنه ابن كثير في البداية والنهاية ٤٢٨/٣، تحقيق عبدالله التركي، ط. دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، مصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٢) انظر نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، ج٣، ص ٤١٣، لأحمد شهاب الدين الخفاجي، ط. المطبعة الأزهرية، مصر، ١٣٢٧هـ.

واصطفاني من بني هاشم"[1]. فنسبه صلى الله عليه وسلم مصطفى أي مختار من أفضل الخلق، ثم هو صلوات الله عليه صفوة الصفوة، والصفوة من كل شيء خياره، فهل يمكن أن يكون أصوله صفوة وهم كفار ؟.

وجاء في حديث العباس بن عبدالمطلب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً"[2]. أي أصلاً إذ جئت من طيب إلى طيب إلى صلب عبدالله بنكاح لا سفاح"[3]. يقول السيوطي – رحمه الله – ومن المعلوم أن الخيرية والاصطفاء، والاختيار من الله والأفضلية لا تكون مع الشرك[4].

ألا يتعارض ظاهر الحديث الذي صدرتُ به البحث مع هذه الأحاديث؟ وكيف يتلاقى وصف والدي الرسول بالشرك – والمشركون والكفار هم شر البرية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [5] – مع تصـريح – الرسول صلى الله عليه وسلم – بأنه تنقل في الأخيار حتى خرج من صلب والده عبدالله؟. إن القرآن صدق كله، والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهل يجتمع

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٢٧٦، ورواه الترمذي حديث رقم ٣٦٠٥ وقال حسن صحيح، جامع الترمذي موسوعة الحديث الشريف، ص ٢٠٢٣.

(٢) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للمباركفوري، كتاب المناقب ٣٥٣٥/٢، ط. بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، بدون تاريخ.

(٣) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للمباركفوري، كتاب المناقب ٣٥٣٥/٢، ط.

(٤) مسالك الحنفا في والدي المصطفى- الحاوي للفتاوى، للإمام السيوطي، ص ٢١٢، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٥) سورة البينة الآية (٦).

النقيضان الخير والشر معاً ؟.

ثم ماذا عن كون والدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أهل الفترة والله قد قال: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)؟ كيف نوفق إذن بين كل هذه النصوص؟، وكيف نوجه تلك الأفكار لنصل إلى ما تطمئن إليه القلوب بشأن والدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم. إن الفترة هي المدة بين كل رسولين، ولكن الفقهاء إذا ذكروا الفترة فإنما يعنون التي بين عيسى – عليه السلام – والنبي محمد[1] – صلى الله عليه وسلم –.

وحكى السيوطي قول البيضاوي : " الفترة ما بعد انقطاع خبر الرسول إلى بلوغ دعوة الثاني" وهذا تعريف جيد حيث يدخل في أهل الفترة من عاش زمن رسول لكن لم تبلغه دعوته[2].

إننا نرى أن نص الحديث موضوع هذا البحث يجب ألا يكتفي في فهمه بأقوال بعض الفقهاء أو أهل الحديث الذين لا يعولون فيما تضمنه النص إلا من خلال حكمهم عليه قوة وضعفاً، بل يجب أن نسترشد إلى جانب ذلك بما تتيحه لنا لغتنا العربية من طرق فهم النصوص في ضوء الملابسات التي قيلت فيها، وفي ضوء أفانين العرب في كلامهم حقيقة ومجازاً، نظراً لما لهذا من أهمية، ولما له من دور كبير في حسم كثير من مشكلات الاختلاف في فهم دلالة العبارات. لا يخفى على أحد مدى انتشار وكثرة الأساليب المجازية في استعمالات العرب، الأمر الذي حدا بعالم لغوي كبير كابن جني إلى القول بأن " أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة" [3] . فهذه عبارة تصور مدى شيوع

(١) انظر التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول في الجنة للسيوطي، ص ٤٢؛ تحقيق الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق، ط. دار جوامع الكلم، مصر، بدون تاريخ. وانظر مسالك الحنفا- الحاوي ص ٢٠٩.

(٢) مسالك الحنفا- الحاوي، ص ٢٠٩.

(٣) الخصائص، لابن جني ٤٤٧/٢ ، تحقيق محمد علي النجار، ط. المكتبة العلمية، بدون تاريخ.

وكثرة المجاز في كلام العرب، وإن كنا لا نقره على ما ذهب إليه، فالمجاز كثير شائع لكن الحقيقة أكثر لأنها الأصل.

إن ما يبرر ذهابنا إلى أن من المحدثين والفقهاء من يقف عند النص والحكم عليه ليخرج بالفتوى دون التعويل على شيء، ما نقرؤه من كلام الإمام النووي – رحمه الله –الذي تقدم وهو قوله : " فيه (أي الحديث) أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو في النار "[1].

إن النووي وهو عالم كبير – بلا شك – قد حكم على والدي الرسول بأنهما في النار لمجرد وجودهما في زمن الفترة الذي عبدت فيه الأوثان ولقد بحثنا عن نص يحكي واقعة تثبت أن عبدالله بن عبدالمطلب والد – الرسول صلى الله عليه وسلم – عبد صنماً، أو قدم قرباناً لصنم، ولكنا – فيما قرأنا – لم نعثر على شيء من هذا، بل إن السيوطي قد حكى عن الفخر الرازي وعن غيره من العلماء ذهابهم إلى أن والدي الرسول كانا على الحنيفية دين جدهما إبراهيم عليه السلام كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل[2]. بل إن هناك ما يرشح أن عبدالله كان بعيداً عن مثل هذا الأمر، ولعل في واقعة المرأة المخزومية[*] التي دعته إلى مواقعتها بعد نجاته من الذبح وافتداء أبيه عبدالمطلب له بمائة من الإبل، ولكنه رفض أقول لعل في هذا ما يرشح ما نقول.

روى ابن كثير بسند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما انطلق

(1) صحيح مسلم بشرح النووي ٧٩/٣.

(2) انظر مسالك الحنفا الحاوي، ص ٢١٠.

(*) ذكر ابن سعد أن المرأة التي عرضت نفسها على عبدالله اختلف فيها فقيل هي فاطمة بنت مر الخثعمية، وقيل هي قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي أخت ورقة بن نوفل. كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٧٥/١. تحقيق د. علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط أولى، ٢٠٠١م.

عبدالمطلب بابنه عبدالله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة في وجه عبدالله، فقالت : يا فتى هل لك أن تقع عليّ الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال عبدالله :

أما الحرام فالممات دونــه ... والحِل لاحـل فأستبينــه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه[1]

نقول : إن هذا يصور أخلاق رجل يصعب اتهامه بعبادة الأوثان، رغم أنه كان يعيش في مجتمع تشرع فيه على بعض البيوت الرايات الحمر بلا مواربة ولا خجل، وقت كان الرجل فيه يطلب من زوجته أن تضاجع رجلاً نجيباً ويعتزلها هو حتى يتبين حملها من ذلك الرجل لتلد له ولداً نجيباً. وكانوا يسمون هذا نكاح الاستبضاع كما جاء في حديث عائشة[2]. وتكملة لما كان بين عبدالله وبين المخزومية، يروى أنه لما تزوج عبدالله بآمنة بنت وهب، مر على الخثعمية بعد أيام ثلاث فلم تقل له شيئاً مما كانت تقوله له فعجب وقال لها: مالك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت علي بالأمس؟ قالت له يا فتى، إني والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نوراً، فأردت أن يكون فيّ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد [3].

إن الإنسان حين يقرأ وعد الله للرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنه سيرضيه في أمته كما ورد في حديث مسلم: عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : " إن النبي – صلى الله عليه وسلم – تلا قول الله

(1) البداية والنهاية ٣١٨/٢ لابن كثير، تحقيق د. عبدالله التركي، ط. دار هجر.

(2) صحيح البخاري، كتاب النكاح، حديث رقم ٥١٢٧، موسوعة الحديث الشريف.

(3) انظر سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – ابن هشام، ج١، ص ٢٠٣، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ط. دار الصحابة للتراث بطنطا، ١٦١٥هـ/١٩٩٥م، والطبقات الكبير لابن سعد، ٧٦/١، تاريخ الطبري ص ٢٩١، ط. بيت الأفكار الدولية، الأردن، بدون تاريخ، اعتنى بطبعه أبو صهيب الكرمي.

تعالى في إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[1]. وقول عيسى عليه السلام : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]. فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقـال الله عز وجل يا جبريل، اذهب إلى محمد –وربك أعلم – فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما قال، وهو أعلم، فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[1] . حين نقرأ هذا الحديث وأمثاله نتساءل: هل يُتصوَّر أن يرضى الله الرسول في أمته بالعفو والمعاملة بالفضل دون والديه – صلى الله عليه وسلم ؟.

وهل يمكن أن يماري أحد في أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – سيستاء وسيحزن إذا ما أدخل والداه أو أحدهما في النار ؟." إن الرجل يغار لأبيه، ويؤذيه ما يؤذيه"[4]. إن أشد أنواع الإيذاء للرسول – صلى الله عليه وسلم – هو القول بأن والديه في النار؛ لأن أهل النار من المشركين والكفار نجس ونحن ندعو القارئ الكريم أن يتأمل معنا كيف اشترط الرسول – صلى الله عليه وسلم – على حسان بن ثابت – رضي الله عنه – أن لا يطول هجاؤه لقريش أصول الرسول، مع أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو الذي طلب منه أن يرد هجاء المشركين عنه، وهذا ما صوره حديث أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها– قالت: استأذن حسان النبي – صلى الله عليه وسلم – في هجاء المشركين قال : كيف بنسبي؟ فقال حسان: لأسُلَّنك منهم كما تُسَلّ

(١) سورة إبراهيم، (الآية : ٣٦).

(٢) سورة المائدة، (الآية : ١١٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ٣٤٦، موسوعة الحديث الشريف.

(٤) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي، ط. دار الكتاب العربي اللبناني، بيروت، بدون تاريخ.

الشعرة من العجين" رواه البخاري، قال ابن حجر: المراد بالنسب: الأصل والمراد ألا يشتم أصل نسبه، وقوله (لأسلنك منهم) : أي لأخلصن نسبك من نسبهم بحيث يختص الهجوم بهم دونك. وفي رواية أبي سلمة : " فقال : ائت أبابكر فإنه أعلم قريش بأنسابها حتى يخلص لك نسبي، فأتاه حسان ثم رجع فقال : قد محض لي نسبك"[1]. ولعل في لقاء وحشي قاتل أسد الله، وسيد الشهداء، حمزة بن عبدالمطلب – رضي الله عنه – برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يصور مقدار حب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعمه، ومعلوم أن عاطفة حب الإنسان لوالديه لا يفوقها في الدرجة إلا حب الإنسان لولده، وبعدهما يأتي حبه للآخرين. ولنستمع إلى وحشي وهو يحدث عما كان حينما رآه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أن أسلم يقول : فلما رآني (أي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –) قال : وحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: "اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة" قال: فحدثته.. . فلما فرغت من حديثي قال: " ويحك غيّب عني وجهك فلا أرينك" قال : فكنت أتنكب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث كان؛ لئلاً يراني..." [2].

لهذه الواقعة دلالات، فطلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – من وحشي ألا يريه وجهه بعد دخول وحشي في الإسلام ونطقه الشهادتين أمام رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يدل على أنه لا يطيق مشاهدته مع أن حمزة – رضي الله عنه – قد فاز بالشهادة وبرضوان الله – عز وجل – على يدي قاتله، تلك الدرجة (درجة الشهادة في سبيل الله) التي تمناها الكثيرون

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٣١ ج٦، ص ٥٥٠٣، تحقيق عبدالعزيز بن باز وآخرين، ط. دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٠، ٢١، تحقيق مجدي فتحي السيد، نشر دار الصحابة، طنطا، مصر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

ولكنهم لم يحظوا بها، وما قول خالد بن الوليد – رضي الله عنه – عند موته، وتحسره على موته على فراشه كما يموت البعير رغم حضوره مائة زحف أو زهاءها، ببعيد عن أذهاننا. نريد أن نقول إن وحشياً كان السبب الذي حقق لحمزة – رضي الله عنه- بغيته وهي الشهادة في سبيل الله، وبعدها دخل وحشي في الإسلام، والإسلام يَجُبّ ما قبله، ومع ذلك كره الرسول – صلى الله عليه وسلم – رؤية قاتل عمه.

قد يقول قائل إنه – صلى الله عليه وسلم – كره رؤية وحشي لأنه قاتل صحابي من أشجع جند الله الذين دافعوا عن الإسلام وعن النبي – صلى الله عليه وسلم –، ونقول لهذا: كثير من الناس قد أسلموا وصاروا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم قد قتلوا قبل إسلامهم من الصحابة ما قتلوا؛ ومنهم خالد بن الوليد – رضي الله عنه – سيف الله المسلول، ولم يرفضهم الرسول أو يستبعدهم..

إن هذا الحب العظيم، والعاطفة الفياضة دليل واضح على شدة حب الرسول لقرابته، كيف لا، وهو الذي كان يوصي دائماً بقرابته خيراً، ولا شك أن حب الإنسان لوالديه هو أشد أنواع الحب، خاصةً أنه لم يثبت شركهما، وإنما الثابت أنهم من أهل الفترة المعفو عنهم بنص القرآن الكريم، وهذا حكم عام لم يثبت ما يخصصه، والحديث الذي يستند إليه المخالفون حديث ظني الثبوت ظني الدلالة كما سنبين لاحقاً، ومن ثم فلا يصلح دليلاً لهم.

كما أنه من المعلوم أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- كان رحيماً، نطق بذلك القرآن، وجسدت ذلك سيرته في كل أحواله وأوقاته. إن في سيرة سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ما يثبت بوضوح أنه صلى الله عليه وسلم كان أرحم الرحماء، وآي القرآن الكريم التي تثبت له –صلى الله عليه وسلم- هذه الصفة متعددة ولعل أكثرها إبرازاً لهذا الخلق النبوي قول الله

تعالى : (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [١].

فقوله (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، (حَرِيصٌ عَلَيْكُم) أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم[٢]. ومما يصور عظم رحمة الرسول – صلى الله عليه وسلم - بأمته قول الله تعالى (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا) [١].

باخع : أي مهلك نفسك بحزنك عليهم، (بهذا الحديث) أي القرآن. قال قتادة : "قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم"[٢]. ولم تقتصر رحمته – صلى الله عليه وسلم- على أمته فحسب؛ لأنه كما وصفه ربه تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ) [٣]. فهو رحمة لكل المخلوقات. إنه –صلوات الله وسلامه عليه- كان رحمة تمشي على الأرض، تجسدت فيه هذه الصفة بكل معانيها وبكل مظاهرها، إنه رحيم حتى بمن يسيء إليه فهو يعفو عنه ويصفح، ويقابل السيئة بالحسنة، ولا غرو فقد نزل عليه (فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ) [٤]. وهو المنزل عليه (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) [٥]. بل إن في سيرته الزكية –صلوات الله وسلامه عليه – ما يدل

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/٢٤١-٢٤٢. تحقيق سامي محمد السلامة، ط. دار طيبة للنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

(١) سورة الكهف، الآية ٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥/٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧ .

(٤) سورة المائدة، الآية ١٣.

(٥) سورة فصلت، الآية ٣٤ .

على أن رحمته تجاوزت الإنسان إلى الحيوان والطير.

إنه –صلى الله عليه وسلم– هو من شهدت الملائكة بأنه كما وصفه ربه رؤوف رحيم كما جاء في خبر عودته من الطائف، وبعد أن دميت عقباه – صلى الله عليه وسلم – بحجارة الصبية الذين أغراهم سفهاء الطائف بملاحقته، وينزل له ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم الجبلين فيقول الرسول الرحيم قولته المشهورة (بل أرجو أن يخرج الله – عز وجل– من أصلابهم من يعبد الله – عز وجل – لا يشرك به شيئاً)[١] اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

إن من العجب! – لكن لا عجب إذا كان الأمر متعلقاً برسول الله – أن يقول الرسول هذا وهو في أزمته، فنفسه تذهب عليهم حسرات؛ لأنهم يرفضون الخير والهدى، وهم لم يكتفوا بالصدود عنه بل تجاوزوا إلى الاعتداء عليه، ولم يصنع سوى شكوى حاله إلى الله (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.... إلخ. الأمر الذي يشي بمبلغ الحزن والكرب الذي ألم به، ومع هذا ترجح كفة رحمته وتطيش كفة كل آلامه وأحزانه، فما كان من الملك إلا أن يقول له " صدق من سماك الرؤوف الرحيم[٢] ": نعم إنه رؤوف رحيم. إنه هو القائل "من لا يرحم لا يُرحم" متفق عليه – من حديث رواه أبو هريرة[٣].

أما يستوقفنا هذا الخُلق، وهذا البحر الزاخر من صور ودلائل الرأفة والرحمة لكي نفكر في عبارته التي قالها بعد أن آلمه حزن الرجل الذي أعلمه أن أباه في النار، فحاول أن يسرّى عن الرجل بعض ما ألمّ به فإذا به يخبره أن أباه أيضاً في النار. إن الحبيب بفطنته يعلم أن الغريب يتسلى بالغريب،

(١) فتح الباري، كتاب بدء الخلق الحديث ٣٢٣١، ص ٣١٣، ج٦.
(٢) السابق.
(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٥٩٩٧) موسوعة الحديث الشريف.

والحزين يتسلى بالحزين كما صورت الخنساء الصحابية الجليلة قبل إسلامها عندما قتل أخوها صخر إذ قالت :

ولولا كثرة الباكين حولي ... على قتلاهمُ لقتلت نفسي

وكما صور الشاعر الجاهلي امرؤ القيس عندما حضره الموت إثر سم سقاه إياه قيصر ملك الروم فمات وحيداً عند جبل يسمى عسيب:

أجارتنا إن المزار قريب ... وإني مقيم ما أقام عسـيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب[١]

ومن هنا تتجلى رحمة الرسول وشفقته بهذا الرجل الذي تلقى خبراً آلمه كثيراً وأهمه، فما كان من الرؤوف الرحيم إلا أن طيب خاطره بعبارة هذا مغزاها، وذاك هدفها، قالها متجوزاً، ولم لا؟ وطبيعة لغتنا تسمح بذلك، ولم لا تحمل على هذا الوجه والقرآن الكريم والسنة قد ورد فيهما من الأساليب المجازية الشيء الكثير؟ ثم ألم يلجأ العربي إلى المجاز لمثل هذه المواقف.

إن الكلمة الحقيقية صاحبة السياق في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى الرجل هي (عمّي) لكن لو استعملت هذه الكلمة هنا لما أدت الهدف الذي استهدفه الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأن إخبار المتكلم بمصير سيء لعمه لا يسلي ولا يخفف حزن الابن الذي أحزنه وأغمه معرفته بأن أباه في النار.

وثم أمر آخر، وهو أنه لا يمكن تصور عدم حزن الرسول – صلى الله عليه وسلم– لسوء مصير والديه، وهو المتحلي بصفة الرحمة في أوج كمالها، فهل يمكن أن يكون قلب الحبيب – صلى الله عليه وسلم – قاسياً صلداً تجاه والديه، وهو الرؤوف الرحيم حتى بمن أساء إليه؟.

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠٣/١.

فتاوى بعض المعاصرين حول الحديث موضوع البحث:

يقرأ الإنسان في أيامنا هذه من فتاوى المفتين ما قد يروقه ويكون محل رضا من العلماء واتفاق مع الكتاب وصحيح السنة، كما يقرأ في بعض الأحيان فتاوى أقل ما توصف به أنها محل خلاف، ومن ثم فأحكامها ليست مسلَّمة، فهي لا تعدو أن تكون مجرد رأي لصاحبها ناتج عن فهم أو اجتهاد له يخالفه فيه علماء كثيرون، وأمثال هؤلاء الآن موجودون وفتاواهم مسجلة ومنشورة في الصحف وعلى المواقع الإليكترونية، ويكفي أي قارئ أن يضغط على زر حاسوبه ليصدم بالكثير من الفتاوى التي أدلى بها المتخصص وغير المتخصص مما يخالف النهج القويم الرشيد الذي كان متبعاً في عملية الإفتاء. إننا بكلامنا هذا لا نستهدف تجريحاً أو تشويهاً أو تتبعاً لزلات العلماء، وإنما هي غيرة على سمعة علمائنا ورموز أمتنا من أن تشوه، لما في ذلك من تشويه لفكرنا وثقافتنا في ساحات الفكر والثقافة العالمية فنوافذ العالم في عصرنا مفتحة ليل نهار.

ولكي لا يكون كلامنا مرسلاً نضرب بعض الأمثلة التي تجسد ما نقول فمثلاً : أفتى جمع من العلماء بعدم جواز توسعة المسعى، وخطأوا من أجازها ومن سمح بتنفيذها، وأتوا بكلام كثير بنوه على أن مساحة المسعى هي ما كانت عليه قبل التوسعة، وهي ما حصرها المبنى الذي تمثل عرضه في عشرين متراً وبعض المتر، وأن أي خروج عن هذه المساحة خروج عن المسعى الشرعي.

ولو أن هؤلاء العلماء -الذين لا نشك في علمهم - تريثوا ودرسوا الأمر من جميع جوانبه خاصة البعد الهندسي لعلموا أن عرض جبل الصفا أكثر مما حدده الحائط الشرقي لمبنى المسعى، وأن هذا الحائط قد اقتطع من الصفا جزءاً صار خارجه، وأن من كان يشاهد الجانب الشرقي لجبل الصفا

كان يوقن تماماً أنه مقتطع، هذا فضلاً عن إثبات الدراسة الهندسية التي قام بها الدكتور أبورزيزة مع فريق عمل متخصص صحة جواز التوسعة، وأنها لم تخرج عن مساحة المسعى الشرعي[1].

نقول : إننا لو أخذنا بمثل هذه الفتاوى لحل بالمسلمين عنت كبير ولأزهقت من شدة الزحام نفوس كثيرة، ومن هنا فإن الكاتبين كثيراً ما اقترحا وجوب ضبط الفتاوى الدينية، وألا تصدر إلا من مجامع علمية ولجان تضم إلى جانب الفقهاء متخصصين مبرزين في شتى فروع العلوم الحديثة النظرية والتطبيقية، لأن العلوم التطبيقية الحديثة قد صححت مفاهيم كثيرة، كما نبهت إلى أشياء هي من مستجدات عصرنا لم يكن لعلمائنا القدامى علم بها لأنها وليدة عصرنا الحاضر.

وسنضرب مثالاً كتب عنه أحد الباحثَين[2] وأوضحه في إحدى دراساته المنشورة، فقد أفتي بعض علمائنا الأجلاء بجواز استعمال المياه المعالجة والتي تحقق فيها الشروط الثلاثة التي نص عليها الأقدمون وهي أن يكون الماء عديم اللون والطعم والرائحة، فمتى ما تحقق فيه هذه الشروط فإنه يجوز أن يستعمل حتى في الشرب. وتعليقاً عليها قال الباحث إن الأمر اليوم مختلف عن عصر وضعت فيه هذه الشروط أو الأوصاف التي لو كان عليها الماء صار صالحاً للشرب. فلم يكن في العصور السابقة ما لدينا الآن من أنواع الملوثات التي يكفي جزء من ألف من المليمتر منها لقتل الإنسان، فليس الأمر

(١) المسعى الشرعي – أطواراً، وطاقة استيعابية، ومساحة من وجهة نظر العلم الحديث، بحث منشور في حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، السنة السادسة، العدد السادس عشر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

(٢) توظيف المعرفة العلمية في استنباط الأحكام الشرعية لاستعمالات مياه الصرف الصحي المدنية المعالجة، أ.د/ عمر سراج أبورزيزة، بحث منشور في حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، السنة السادسة، العدد الثالث عشر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

كما كان، ولكل عصر ما يتناسب مع ظروفه وأحواله اللهم إلا في مجال العبادات.

إن الباحثين إذ يقدمان بهذه المقدمة فإنما يريدان أن يلفتا النظر إلى ضرورة دراسة الأمر من جميع جوانبه قبل الحكم على الأشياء، وقبل إصدار الفتاوى ونشر الأقوال.

أما عن صلة هذا بموضوع البحث فهو ما قرأنا من فتاوى بعض العلماء إذ قسم من عاش في الجاهلية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ثلاثة أقسام : أهل الفترة، والحنفاء، والمشركون.

و" أنه إذا جاء النص بأن أحدهم في النار فهو دليل على أنه ليس من الحنفاء". وليس من أهل الفترة[1]، ويعني بهذا أن والد الرسول صلى الله عليه وسلم في النار؛ لأن الفتوى كانت إجابة سؤال عن مصير والدي الرسول صلى الله عليه وسلم.

وللتعليق نقول : لو سلمنا بصحة حديث " إن أبي وأباك في النار " ألا يستدعي حب رسول الله لوالديه ، وحبنا للرسول، ولمن يحبهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن نتريث قليلاً لنفهم الظرف والحال التي قيل فيها هذا الحديث.

إن الحال وهي قرينة معنوية لها دور كبير في الحكم على حقيقية أو مجازية العبارة. والحال تنبئ بأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أراد أن يهون على الرجل حتى يتسلى بذلك، مبينا له أن الحكم ليس خاصاً بأبيه كما يقول سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في فتواه لما سئل عن هذا الحديث، ولكن الشيخ – رحمه الله – يعقب بقوله : " ولعل هذين (أي والد الرسول ووالد الرجل) قد بلغتهما الحجة .. والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن

(1) الفتوى رقم ٢١٨٩٨٦ مركز الفتوى، موقع إسلام ويب.

الهوى. لكن بداية فتوى سماحته بينت حال أهل الفترة وأنه ليس في القرآن ما يدل على أنهم ناجون أو هالكون، واستشهد بقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)، فالله – جل وعلا – من كمال عدله لا يعذب أحداً إلا بعد بعث الرسول، فمن لم تبلغه الدعوة فليس بمعذب حتى تقام عليه الحجة، والحجة قد تقوم حتى يوم القيامة كما جاء في السنة حين تقام الحجة على أهل الفترات ويمتحنون يوم القيامة فمن أجاب وامتثل نجا، ومن عصى دخل النار". وتعقيباً على قوله : " لعل والد الرسول ووالد الرجل قد بلغتهما الحجة"، نقول: أي حجة تلك والرسول لم يكن قد أُرسل بعد؟ بل لم يكن قد ولد بعد؟ وكيف لنا أن نستثني والد الرسول لنخرجه من حكم أهل الفترة، وهو منهم فنحن نعلم أنه قد مات والرسول جنين في بطن أمه. أما والد الرجل فأمره مختلف، لأننا لا نعرف شيئاً عنه.

بمقتضى ما تقدم يمكننا القول إن والد الرسول من أهل الفترة، لأنه لم تبلغه الدعوة، كما أن كتب الأخبار والسير لم تحدثنا أنه عبد صنماً أو قدم قرباناً لصنم، ومن هنا فلا يوجد إلا هذا الحديث مثبتاً لكونه من أهل النار.

ومع إمكان حمل كلمة الأب في حديث مسلم على المجاز، يكون الأصل قائماً وهو كون والد الرسول من أهل الفترة. وسنخص المجاز بحديث مستقل؛ لأنه سبيل يحل – دون تجمل أو تكلف – الإشكال في فهم حديث (إن أبي وأباك في النار) وهناك سبيل آخر ذكره الإمام السيوطي وهو أن حديث أبي وأباك في النار ورد بروايتين عن طريقين مختلفين، المذكورة إحداهما، والثانية لم تذكر فيها هذه العبارة، وإنما اقتصرت على إجابة الرسول عن سؤال السائل فقط. وقوى السيوطي الرواية الثانية على الأولى، والسيوطي – كما هو معلوم –عالم من علماء الحديث وله في هذا العلم مؤلفات عظيمة.

وثم أمر آخر وهو أن الحديث حديث آحاد[1]، ومثله حديث استئذان الرسول ربه لزيارة أمه والاستغفار لها، ومن ثم فهما ظنيا الثبوت، وأما الآية الكريمة (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) فهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

إن حديث الآحاد يؤخذ به في الاعتقاد والعلم، وإنما يؤخذ به في الأعمال وهذا عند جمهور الأصوليين والفقهاء بشروط أهمها عدالة الراوي وضبطه، وألا يتعارض مع نص أقوى منه. إن خبر الواحد لا يفيد العلم القطعي، وإنما يفيد العلم الظني الراجح، ومعنى هذا أن نسبته إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم تثبت على وجه الجزم واليقين، يقول الشيخ محمد أبوزهرة : ولهذه الشبهة في إسناد الحديث (أي حديث الآحاد) قالوا إنه يجب العمل به إن لم يعارضه معارض، ولكن لا يؤخذ في الاعتقاد[2] ونحن نقول : ألا تدخل المسألة التي نحن بصدد الحديث عنها في مجال الاعتقاد؟ إنها تتعلق بجنة ونار، ونجاة أو عذاب، ثم إنه يتعارض مع الآية الكريمة (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولنستمع إلى قول العلامة الشاشي – رحمه الله – وهو يقول : "شرط العمل بحديث الآحاد أن لا يكون مخالفاً للكتاب والسنة المشهورة ... فلهذا وجب عرض الخبر على الكتاب والسنة المشهورة"[3]. وقال القدوري : "إن خبر الواحد إذ خرج على الأصول لا يجوز قبوله على

(١) انظر كتاب " مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجنكي الشنقيطي"، ص ٤٠، وانظر كتابه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥٦٧/٣، ط. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

(٢) أصول الفقه للشيخ محمد أبوزهرة، ص ١٠٩، ط. دار الفكر العربي، بدون تاريخ، وانظر أصول السرخسي ٢١/١، تحقيق أبوالوفا الأفغاني، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣) أصول الشاشي، نظام الدين أبو علي أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي، ص ١٧٦، صححه عبدالله الخليلي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ظاهرة[1]" ونقول : أوليست آية سورة الإسراء مرسخة لأصل ووعد قطعه الله على نفسه بأنه لن يعذب من لم تبلغه دعوة الرسل وبعد، فهذه أحكام فقهاء ذوي وزن وثقل في الدرس الشرعي وغيرهم ممن قالوا بهذا كثير، ومن ثم لا يمكن إغفالها، إن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن نص هذا الحديث يتعارض مع نص آية سورة الإسراء. وثم أمر لا يمكن إغفاله وهو ما ذكره الإمام الحافظ السيوطي – رحمه الله – حيث قال: إن عبارة (إن أبي وأباك في النار) لم تتفق عليها روايات الحديث، وإنما انفرد بها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، وهي الطريق التي رواه بها مسلم"، كما ذكر – رحمه الله– أن هناك رواية أخرى من طريق أخرى فقال : " وقد خالفه معمر عن ثابت فلم يذكر (إن أبي وأباك في النار)، ولكن الرسول قال له : (إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار) وهذا اللفظ لا دلالة فيه على والده – صلى الله عليه وسلم – بأمر ألبتة، وهو أثبت من حيث الرواية، فإن معمراً أثبت من حماد، فإن حماداً تُكُلم في حفظه، ووقع في أحاديثه مناكير... أما معمر فلم يتكلم في حفظه ولا استنكر شيء من حديثه، واتفق على التخريج له الشيخان،فكان لفظه أثبت"[2].

يتضح إذن من هذا الكلام العلمي الدقيق أن الرواية التي اعتمدها مسلم – رحمه الله– مرجوحة، وأن الرواية الأخرى هي الأرجح.

ولا يجوز أن يهون أحد من قدر السيوطي وعلمه، فهو أولى من يؤخذ برأيه في مثل هذه القضايا، فهو الفقيه اللغوي البلاغي المحدث المفسّر الحافظ الثقة، ولنستمع إلى قوله : " وإني – بحمد الله– قد اجتمع عندي الحديث والفقه، والأصول، وسائر الآلات العربية، والمعاني والبيان، وغير ذلك، فأنا

(١) التجريد ٢٩٦٨/٦، تحقيق د. محمد سراج، د. علي جمعة، ط. دار السلام، مصر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢) مسالك الحنفا– الحاوي، ص ٢٢٦.

أعرف كيف أتكلم، وكيف أقول، وكيف أستدل، وكيف أرجح[1].

قال هذا، ولا إخاله مفاخراً، بل هو متحدث بفضل الله عليه في معرض رده على خصم خالفه في هذه المسألة، وأصر على عناده رغم حجج السيوطي التي طرحها.

الأحوال الدينية في مكة قبل البعثة :

دان أهل مكة منذ نشأتها بدين إبراهيم الحنيف زمانه وزمان إسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، فكانوا موحدين حنفاء واستمروا على هذا فترة طويلة، حتى أدخل عمرو بن لُحَيّ الأصنام إلى مكة المكرمة.

وإذا شئنا شيئاً من التفصيل لهذا الأمر فإننا نجد فيما قال ابن خلدون إيضاحاً مختصراً إذ قال: " سكن إسماعيل مع جرهم بمكة، وتزوج فيهم وتعلم لغتهم، وتكلم بها، وصار أباً لمن بعده من أجيال العرب، وبعثه الله إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بمكة، وإلى أهل اليمن فآمن بعض وكفر بعض"[2].

و" قد عهد (إسماعيل) بأمره لابنه قيذار، " ويقال إنما عهد لابنه نابت فقام ابنه بأمر البيت ووليها"... ثم هلك نابت بن إسماعيل وولي أمر البيت جده (أي لأمه) الحرث بن مضاض، وقيل وليها مضاض بن عمرو بن جرهم ثم ابنه الحرث بن عمرو، ثم قسمت بين ولد إسماعيل بمكة (وكان عددهم كما ينقل أهل التوراة اثنى عشر ولداً) وأخوالهم من جرهم ولاية البيت لا ينازعهم ولد إسماعيل إعظاماً للجرم أن يكون به بغي أو قتال، ثم بغت جرهم في البيت، يذكر الأرزقي أنهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً[3].

---

(١) مسالك الحنفا- الحاوي، ص ٢٢٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون، " العبر وديوان المبتدأ والخبر"، ص ٤٣٦، طبع بيت الأفكار الدولية، الأردن، عناية أبو صهيب. وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٨/١، ط.

(٣) انظر تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي، ط١، ص ١٥٣، تحقيق: د. عبدالملك بن دهيش، ط١، ص ٢٢٤. وانظر البداية والنهاية لابن كثير "قصة خزاعة وخبر عمرو بن لحي، ٢٨٩/١.

واستخفوا بحرمته، وأكلوا ما يهدى إلى الكعبة من أموال، فكان أن غلبتهم خزاعة وملكوا البيت عليهم، ورئيسهم يومئذ عمرو بن لُحَيّ، وهو الرجل الذي بحّر البحيرة، وسيّب السائبة، وحمى الحامي، وغير دين إسماعيل، ودعا إلى عبادة الأوثان[1].

كما أن من العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ومنهم من كان يحرم الخمر، وكان عندهم من الخصال ما هو محمود كالوفاء بالوعد والكرم، وترك الكذب، وغير ذلكم من الأخلاق الحسنة، وكانوا يحجون ويؤدون المناسك، وكانوا يحفظون الجوار، وكانوا يداومون على خصال الفطرة العشر التي ابتلى بها إبراهيم(*) ويوفون بالعقود والعهود ويحرمون نكاح إناث نزل القرآن بتحريمها[2]. فمن الممكن أن يلزم الإنسان نفسه بفضائل تحبذها الفطر السليمة والنفوس السوية، وينأى بنفسه عن الأعمال المذمومة والأخلاق السيئة دون أن يكون ذلك تكليفاً أو تشريعاً يؤمن به فالبر ما اطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في الصدر[3] . كما كان عندهم أيضاً وأد البنات وشرب الخمر.

يتبين من هذا العرض التاريخي المختصر كيف دخلت الأصنام مكة وعلى يد من كان هذا. يدل ما ذكره الأزرقي وابن خلدون وغيرهما أن المكيين اعتنقوا الحنيفية حقباً غير قصيرة إلى أن أدخل عليهم عمرو بن لُحَيّ عبادة الأصنام فتبدلت حال جمهورهم ولم يبق من الحنفاء إلا العدد القليل.

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ص ٤٨٧، وانظر الطبقات الكبير لابن سعد، ٤٩/١، ٥٠.

(*) الخصال العشر التي هي من سنن إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – : خمس منها في الرأس وهي قص الشارب، المضمضة، والاستنشاق، والسواك، والفرق (تفريق شعر الرأس في الجانبين)، وخمس في الجسد وهي: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والاختتان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط، البول بالماء، ويضاف إليها مناسك الحج.

(٢) انظر التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول في الجنة، ص ٦٤، ٦٥.

(٣) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي، ط. مطبعة الحقيقة، اسطنبول، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٤٠٨/١

كما يتبين أيضاً صحة القول : إن الفترة الحقيقية لم تحصل إلا بعد عمرو بن لُحيّ. فهو الذي غيّر وبدل، ووضع عبادة الأصنام[1] . والقول: "إن العرب لم يكونوا مأمورين بدعوة إبراهيم عليه السلام، ودعوة إسماعيل انتهت بموته على ما جزم به ابن حجر "[2].

لكن هل يعني ذلك أن من عاشوا في هذه البقعة المباركة، ولم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وعاشوا وماتوا قبل بعثة النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه يكونون مشركين مع كونهم من أهل الفترة[3]. وهل وجود بعض الحنفاء أو النصارى بين أهل الفترة يقوم حجة على من خالف؟ إننا لو قلنا بذلك لأنزلنا هؤلاء الحنفاء منزلة الرسل، وهذا أمر غير جائز، ثم إن القرآن صريح "حتى نبعث رسولا ".

فلنتدبر معاً قول الله تعالى : (وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ)[4].

يقول العلامة الفخر الرازي: " قوله (أن تقولوا) خطاب لأهل مكة، والمعنى: كراهة أن يقول أهل مكة : أنزل الكتاب، وهو التوراة والإنجيل على "طائفتين من قبلنا" ، وهم اليهود والنصارى، " وإن كنا عن دراستهم لغافلين"

(١) سَداد الدَّين، وسداد الدَّين في إثبات النجاة للوالدين تأليف العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي الحسيني المدني، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٦٣ نقلاً عن الشهرستاني.

(٢) سداد الدَّين وسداد الدَّين في إثبات النجاة للوالدين، ص ٦٥.

(٣) قال الجوهري : الفترة ما بين الرسولين من رسل الله" الصحاح، ٧٧٧/٢، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط. دار العلم للملايين، ط. ثالثة، بيروت، ١٩٨٤م.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٥٥ – ١٥٧.

والمراد بهذه الآيات إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كي لا يقولوا يوم القيامة إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا وكنا غافلين عما فيهما، فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم. وقوله (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) أي لا نعلم ما هي؛ لأن كتابهم ما كان بلغتنا"[1]. والقاعدة العامة أن كل رسول كان يبعث بلغة قومه (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[2].

إن هذه الآيات واضحة الدلالة على أن من لم تبلغه الرسالة معذور في عدم الإيمان، فقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن لتقوم الحجة على من شرد ولم يؤمن.

أهل الفترة إذن غير مكلفين بالإيمان برسل لم يرسلوا إليهم، في أزمنة لم يعيشوها، ولا حجة عليهم في عدم إيمانهم برسالات أرسلت لغيرهم من الأمم، أو رسل كانوا من غيرهم.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ)[3].

في تفسيره لهذه الآية يقول الفخر الرازي " بين أنه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة في التكليف .. والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذراً لهم. فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك ما لهم وما عليهم فلا حجة لهم ألبتة بل الحجة عليهم "[4].

إن أهل الفترة معذورون، ولم يتبدد هذا العذر إلا ببعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٦/١٤.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية ٤.

(٣) سورة طه، الآية ١٣٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي، ج٢٢، ص ١٣٧.

ولنتأمل قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة[1].

ألا يدل هذا الحديث على أن أهل الفترة ليسوا مكلفين باتباع رسول من خارج قومهم وفي غير زمنهم وكتابه بغير لغتهم؟

بمعنى هل يجوز لنا أن نقول إن والد الرسول أو جدّه كان عليهم اتباع عيسى عليه السلام لأن دعوته وصلت إلى المكيين بدليل أن منهم من كان حنيفياً، ومن عرب الجزيرة من كانوا نصارى؟ إنني أرى أن الإجابة بنعم على هذا السؤال تتعارض تماماً مع نص هذا الحديث، ونعجب حين نقرأ بعض الفتاوى التي تذهب هذا المذهب؛ لأن الحديث صريح في أن الرسل السابقين الذين تلوا إسماعيل لم يرسلوا إلى العرب، ومن ثم فالعرب أهل فترة، فهل يكون لوالد الرسول صلى الله عليه وسلم حكم خاص؟. وهل يستثنى وحده من حكمهم؟ .

فإن قيل : هذا حكم أهل الفترة إلا من ورد فيه نص بأنه في النار، أقول إنّ حمل لفظ (أبي) في الحديث على المجاز أمر محتمل، فلم لا يكون المراد به عمي، وانظر إلى قول الله تعالى : (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤٣٨، موسوعة الحديث الشريف، ص ٣٧. وذكر في كتاب التيمم مع اختلافات يسيره في النص، انظر نفس المرجع، كتاب التيمم رقم ٣٣٥، ص ٢٩.

لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)[1].

إنه خطاب لأهل الكتاب، وقد أرسل الله إليهم رسولين من قومهم، ومع ذلك فهو يعلمهم أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم المهيمنة التي شملت كل ما سبقها هي رسالة عامة فلا حجة لهم إذا هم لم يتبعوه. " ومعنى هذا أنه ربما ساغ احتجاجهم بطول الزمن إذ هو مظنة التغيير والتحريف في الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها، وبسبب ذلك اختلط الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات[2].

إن هؤلاء المخاطبين بالآية كتابيون وصلتهم رسالات بُلغتهم، وحدثتهم كتبهم عن نبوة محمد حتى عرفوا الحق كما عرفوا أبناءهم، ومع ذلك يؤكد الله ويكرر تذكيره لهم حتى لا تكون لهم حجة، فما بالنا بأناس لم يرسل إليهم أساساً، وجمهورهم الأعظم أمي لا يقرأ؟ إن هؤلاء إذا لم يكونوا هم أهل الفترة الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا)[3].

فمن إذن يكون أهل الفترة ؟.

قال الإمام السيوطي : الفترة ما بين النبيين، واشتهرت لما بين عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يكن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم الدعوة فليت شعري من هم ؟ وقد قال الرافعي في الروضة من لم تبلغه دعوة نبينا عليه السلام لا يجوز قتله قبل الإعلام والدعاء إلى الإسلام، فلو قتل كان

(١) سورة المائدة، الآية ١٩.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي، ١١/١٩٩.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ١٥.

مضموناً قطعاً[1]. وأهل الفترة هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول، ولا أدركوا الثاني[2] وهؤلاء لم يشملهم العذاب الدنيوي الذي كان ينزل على الأمم التي كذبت رسلها، وإنما كان العذاب يخص أمة الرسول المكذبة فقط، وهذا دليل قوي على خصوصية الرسالات التي سبقت الرسالة الإسلامية.

اختلفت آراء العلماء حول نوع العذاب الذي علقه الله عز وجل على بعث رسوله، أهو عذاب الدنيا كالذي حدثنا القرآن الكريم عن نماذج عديدة منه وقعت بأمم كذبت رسلها فكان ما كان من تعذيبهم وإهلاكهم، أم أنه يشمل عذاب الدنيا والآخرة، أم عذاب الآخرة فقط؟.

وللإجابة عن هذا قال ابن عطية – رحمه الله – : "قالت فرقة هي الجمهور هذا في حكم الدنيا، أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا من بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة" قال القاضي أبو محمد (يعني نفسه) وتلخيص هذا المعنى أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلام بعادة الله مع الأمم في الدنيا، وبهذا يقترب الوعيد من كفار مكة، ويؤيد هذا ما يجئ بعدُ من وصفه ما يكون عند إرادته إهلاك قرية، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون. ومع هذا فالظاهر من كتاب الله في غير هذا الموضع، ومن النظر أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل كقوله تعالى : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ)[3]. وظاهر " كلما " الحصر. وكقوله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)[4].

(1) التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة للسيوطي، ص ٤٢.
(2) انظر مسالك الحنفا – الحاوي، ص ٢٠٩.
(3) سورة الملك، الآية ٨، ٩.
(4) سورة فاطر، الآية ٢٤. المحرر الوجير لابن عطية ٤٤٤/٣ تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

إن هذا المعنى هو ما ترشحه آي القرآن الكريم كما يفيد تعقيب ابن عطية، لكنه يسوق لنا حكماً آخر كان له صدى لدى كثير من المفسرين ومنهم العلامة القرطبي –رحمه الله–[1].

قال ابن عطية : " وأما من جهة النظر (يعني الفكر والعقل) فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد وبث المعتقدات في نبيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر يوجب على كل أحد من العالم الإيمان بالله، واتباع شريعة الله، ثم تجد ذلك في مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار". لكنه عقّب بقوله : " ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم الرسالة وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم"[2].

وللعلامة البغوي في تفسيره لهذه الآيات رأي فيه رد على ابن عطية حيث قال عقب الآية : " إقامة للحجة، وقطعاً للعذر، وفيه دليل على أن ما وجب وجب بالسمع (أي المتمثل في إرسال الرسل) لا بالعقل[3]. (أي ما سماه ابن عطية "النظر").

إننا نعدّ الكلام عن العقل (النظر) والسمع قضية خارج نطاق بحثنا؛ لأن معرفة الله خالق الكون والبشر والسماوات والأرض لم ينكرها إلا قلة قليلة من بني الإنسان معاندون للفطرة. ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة جيدة مفيدة في هذه القضية فرق فيها بين معرفة الله على العموم التي هي فطرية قد فطر الله عليها جميع المخلوقات لا الإنس فقط، وبين المعرفة التامة وهي معرفته بصفات الكمال ونعوت الجلال فيما لم يزل ولا يزال، ومعرفة أسمائه، وما أمر به، وما نهى عنه، وما أخبر به، وما أراده من عباده شرعاً، وما

(1) نظر تفسير القرطبي ٤٣/١٣، ٤٤. تحقيق عبدالله التركي، ط. مؤسسة الرسالة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
(2) المحرر الوجيز، ٤٤٤/٣.
(3) تفسير البغوي ٨٢/٥، تحقيق محمد عبدالله النمر وآخرين، ط. دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.

كرهه منهم ولم يرضه ولم يرد وقوعه، فهذا ما لا يعلم إلا بالسمع من جهة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فعبادة الله تعالى والإيمان به إنما يجب بالسمع ويلزم بالبلاغ"[1].

إن من المسلّم به أن الجاهليين من أهل الفترة كانوا معترفين بوجود الله عز وجل، وبأنه خالق السموات والأرض سواء أكان ذلك بالفطرة، أو ببقايا الحنيفية الإبراهيمية، أو بسماعهم من اليهود والنصارى، المحصلة واحدة وهي أنهم لم ينكروا وجود الله، لكن الغالبية العظمى منهم لم يوحدوه سبحانه بل عبدوا معه الأوثان، كوسائط بينهم وبينه سبحانه وتعالي تقربهم إليه قالوا : (وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – " مشركو العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض، بل مقرين بأن الله وحده خلق السماوات والأرض وما بينهما، كما أخبر الله عنهم بذلك في غير آية، كقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون)، وذكر عدة آيات تشهد لإقرارهم بألوهية الله ... وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض، ولا خلق شيء، بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط، كما قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) [2].

حكى السيوطي قول الأبّي فيما حكاه عن عقيل بن أبي طالب: إن أهل

---

(1) الكلام على الفطرة لابن تيمية منشور ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، ج٢/٣٤٤ (بتصرف) ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٧٥، ٧٦، ٧٧. جمع وترتيب عبدالرحمن محمد قاسم، وآخر، ط. بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز.

الفترة ثلاثة أقسام الأول : من أدرك التوحيد ببصيرته، ثم من هؤلاء من لم يدخل في شريعة كقس بن ساعدة، وزيد بن نفيل، ومنهم من دخل في شريعة حق قائمة الرسم كتبع وقومه.

القسم الثاني : من بدل وغير، وأشرك ولم يوحد، وشرع لنفسه فحلل وحرم، وهم الأكثر كعمرو بن لحي أول من سن للعرب عبادة الأصنام، وشرع الأحكام فبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، وزادت طائفة من العرب على ما شرعه أن عبدوا الجن والملائكة، وخرقوا البنين والبنات، واتخذوا بيوتاً وجعلوا لها سدنة وحجاباً يضاهون بها الكعبة كاللات والعزى ومناة.

القسم الثالث : من لم يشرك ولم يوحد ولا دخل في شريعة نبي ولا ابتكر لنفسه شريعة، ولا اخترع ديناً بل بقي عمره على حال غفلة عن هذا كله وفي الجاهلية من كان كذلك"[1].

وحكى السيوطي عن الأُبي حكم هذه الثلاثة الأقسام بقوله :

أما القسم الثالث فهم أهل الفترة حقيقة، وهم غير معذبين بالقطع، وأما القسم الأول فقد قال صلى الله عليه وسلم كل من قس وزيد أنه يبعث أمة وحده، وأما تبع ونحوه فحكمهم حكم أهل الدين الذي دخلوا فيه ما لم يلحق أحد منهم الإسلام الناسخ لكل دين[2].

إن عذاب الله الذي نزل بالكفار في الدنيا بالغرق أو بالريح أو بالصعقة أو بالخسف أو غير ذلك إنما نزل بأقوام كذبوا رسلهم الذين أُرسلوا إليهم خاصةً، فهؤلاء جميعاً سمعوا ودُعوا إلى الله ولكنهم عاندوا وأصروا واستكبروا فكان ما كان من إهلاك الله لهم.

---

(1) مسالك الحنفا ٢/٢٠٩.

(2) السابق.

أما من وجد في حقبة من الزمن خلت من الرسل (أهل الفترة) فإن قلنا إنهم يدخلون النار لعدم استجابتهم لفطرتهم التي فطر الله الناس عليها، وهي الإقرار بوجود الله، كان الجواب بأن العرب بمن فيهم والدي الرسول صلى الله عليه وسلم وجده لا ينضوون ضمن هذا الصنف من الناس لأنهم كانوا مؤمنين بوجود الله، فلم يبق إذن إلا اندراجهم تحت قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً). فهم من العرب، والعرب لم يرسل الله لهم رسولاً بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام إلا محمداً صلى الله عليه وسلم.

وهنا قد يسأل سائل : لم كان الحكم إذن على والد السائل بأنه في النار؟ وللإجابة عن هذا نقول: وجه الإمام السيوطي هذا السؤال إلى نفسه وأجاب بقوله : " ظهر لي عن ذلك أربعة أجوبة :

الأول : أنه متقدم على الأحاديث الواردة في أهل الفترة فيكون منسوخاً بها.

الثاني: أنا لم نقطع بعدم النار في أهل الفترة، بل قلنا يمتحنون فمن أطاع دخل الجنة، ومن لا، دخل النار، فيمكن أن يكون النبي – صلى الله عليه وسلم – اطلع في حق هذا بخصوصه على أنه يعصى عند الامتحان فيدخل النار.

الثالث : أنه يمكن في هذا الرجل أن يكون ممن دخل يثرب والشام واجتمع بأهل الكتاب .. وأصر على الشرك فلم يعذر.

الرابع : أنه يمكن أن يكون عاش حتى أدرك بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – وبلغه ذلك، وأصر ومات في عهده، وهذا لا عذر له ألبتة"[1].: قد يكون والد السائل ممن أدرك بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يدخل في الإيمان، ومن ثم فحاله مختلفة عن والد الرسول، كما أنه قد يكون من عبدة الأوثان[2].

---

(١) التعظيم والمنة، ص ٥٠، ٥١.

(٢) انظر سَداد الدَّين وسِداد الدَّين ، ص ٢٧، ٢٦٨.

كيف نفهم إذن حديث إن أبي وأباك في النار ؟

هذا ما نجيب عنه بحول الله فيما يلي، وأقول ممهداً لما سيأتي إن الرسول عنى بكلمة (أبي) – والله ورسوله أعلم بما أراد – (عمّي) لأن كلمة (أب) مفردة ومجموعة استعملها العرب أحياناً بمعنى العم، وأحياناً بمعنى الجد كما قال الألوسي –رحمه الله– في تفسيره لقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) و " العم والجد يسميان أبوين مجازاً "[1]. فقد ورد أن اسم أبيه (أبي إبراهيم) تارخ، وقيل إن آزر لقب لأبيه، وقيل آزر اسمه حقيقة.

والأرجح أن آزر كان عماً لإبراهيم – عليه السلام – لأن القول بغير ذلك يتعارض مع الأحاديث الشريفة التي تبين أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – طاهر الأصول، مُختار النسب، ومن ثم فلا يجوز أن يكون فيهم عابد للأصنام فمن علوه من أصوله لم يكن فيهم عابد صنم، ومن تلاه من بنيه لم يكن فيهم عابد صنم لدعوته – صلى الله عليه وسلم– (وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ)[2]، ومما يرجح أن آزر كان عم إبراهيم وليس أباه دعاؤه لوالديه (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ)[3]، فهي دعوة الوالدين اللذين ليس أحدهما آزر، لأن القرآن قد سجل أن استغفاره لآزر كان في حياته (لاستغفرن لك) فالخطاب للحاضر رجاء أن يهتدي، فلما لم يهتد تبرأ منه، ثم إن دعاء إبراهيم متأخر زمنياً، بعد أن أذن للحج بمكة المكرمة، كما يدل سياق آيات سورة إبراهيم.

على أن تسمية العم أباً، كثير في لغة العرب، واستعملت الكلمة بهذا المعنى في القرآن الكريم لأن النص الشريف جاري العرب في استعمالاتهم

---

(١) روح المعاني ١٩٤/٧، ط. إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) سورة إبراهيم من الآية ٣٥.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٤١.

اللغوية، ولعل آية سورة البقرة تدل دلالة صريحة على هذا. قال تعالى : ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ (١) ومعلوم أن إسماعيل ليس والد يعقوب، وإنما هو عمه. كما استعملت الكلمة (آباء) مجموعة هكذا لتشمل الوالد والجد وما علا، لأن كلمة (أب) تطلق على الوالد وإن علا، كما تطلق على الزوج أيضاً قال الفيروز بادي : " وأبو المرأة زوجها"(٢)، كما أن كلمة (ابن) تطلق على الولد وإن سفل، أي الابن وابن الابن وما يليه نزولاً.

ومن صور إطلاق (الأب) على الجد وإن علا قوله تعالى : ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ (٣). ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ (٤) وقال على لسان يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ (٥). فقد سمى القرآن الجد الأول والثاني أبوين. والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم، وإنما أردنا مجرد التمثيل.

أما في الشعر العربي – الذي وصفه سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– بأنه ديوان العرب – فقد وردت فيه كلمة (الأب) في غير الوالد كثيراً، منه :

قول الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

يعني أصوله وأهل قبيلته.

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٣.

(٢) القاموس المحيط ٢٩٢/٤، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

(٣) سورة هود، الآية ٨٧.

(٤) سورة يوسف، الآية ٣٨.

(٥) سورة يوسف، الآية ٦.

إن (الأب) حقيقة لا يطلق إلا على الوالد، وإن ثنيت لتدل مع الوالد على الجد فإن هذا يكون من قبيل المجاز، وكذا إذا جمعت فلا يكون استعمالها إلا مجازاً!. أما العم والخال فيجوز تثنيثهما وجمعهما ويكونان حقيقة؛ لأن هاتين الدرجتين من القرابة قد تتعدد أفرادهما، لأنه قد يكون للإنسان أكثر من عم وأكثر من خال.

نخلص مما تقدم إلى أن هناك احتمالاً قوياً بأن كلمة (أبي) في حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– مستعملة على سبيل المجاز، وأن المراد بها عمه– صلى الله عليه وسلم–. وللمجاز في اللغة العربية دور كبير في تنوع صور التعبير، كما أنه يضفي عليها حسناً وجمالاً. ونختلف مع العلامة ابن حجر فيما حكاه عنه البرزنجي من ذهابه إلى أن الأب يطلق على العم حقيقة"(١) فلكل اسم في لغتنا العربية مسماه المختص به، إلا إذا كان من قبيل المشترك اللفظي، وليس هذا منه؛ لأن دلالة المشترك على معنييه تكون دلالة على السواء. أي أن الاسم يدل على معنيينه أو معانيه كلها بنفس الدرجة دون تجوز.

ونجد أنفسنا بحاجة إلى الحديث عن المجاز في لمحة مختصرة لنبين سر استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم له في الحديث الذي معنا.

المجاز في لغتنا العربية أنواع فمنه ما يسمى بالمجاز العقلي، وذلك عندما يسند الفعل إلى غير فاعله، وما يسمى بالمجاز اللغوي، وهو ما يتمثل في المجاز المرسل والاستعارة والكناية. قال السيوطي : " وقد وجه (أي إطلاق إبراهيم عليه السلام على عمه "أبي") من حيث اللغة بأن العرب تطلق لفظ الأب على العم إطلاقاً شائعاً وإن كان مجازا)(٢).

(١) سداد الدين وسداد الدين للبرزنجي، ص ٢٤٤.

(٢) مسالك الحنفا – الحاوي للفتاوي للسيوطي، ٢١٤/٢.

فمن أي أنواع المجاز استعمال كلمة أب للدلالة على العم على افتراض صحة ما نميل إليه ؟.

نرى – والله ورسوله أعلم – أن هذا من قبيل الاستعارة، حيث قال الرسول – صلى الله عليه وسلم _ (أبي) وهو يريد عمي، يقصد أبا طالب، فعم الرجل صنو أبيه كما قال البيهقي[1]. لأن أبا طالب كان بالفعل بمنزلة والد الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – حيث كفله صغيراً فنشأ بين أولاده، كما أن أبا طالب كان ظهيراً للرسول دفع عنه المشركين بكل ما أوتي من قوة كما يفعل الوالد مع ولده. ومما يرشح ذلك أن المشركين في مساومتهم لأبي طالب قالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامنا فنقتله فإنما هو رجل برجل. قال : والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟[2].

وكان أبو طالب يقول عنه – صلى الله عليه وسلم – هو ابني، ففي رحلة إلى الشام وكان في صحبته الرسول وهو غلام سأله الراهب قائلا : ما هذا منك ؟ قال هو ابني، فقال: له ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. يقول السيوطي – يرحمه الله – : "فكانت تسمية أبي طالب أباً للنبي – صلى الله عليه وسلم – شائعة عندهم لكونه عمه، وكونه رباه وكفله من سن صغيره، وكان يحوطه ويحفظه وينصره"[3]. إن أبا طالب كان يحب الرسول

(١) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي، ج٣، ص ٤١٣، ط. المطبعة الأزهرية، مصر، ١٣٢٧هـ (وعم الرجل صنو أبيه على التشبيه بفسائل النخيل التي تخرج من أصل واحد).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٨٥/١، ٣٨٦.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٥/١، ٣٨٦.

حباً شديداً وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبّ أبو طالب به صبابة لم يصبّ مثلها بشيء قط"[1]، وكان لا يطعم أولاده حتى يحضر محمد ويقول : كما أنتم حتى يحضر ابني[2]. ويقول ابن سعد أيضاً : " وكان أبو طالب يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات"[3]. واستعمال الكلمة بهذا المعنى لا على سبيل الحقيقة العرفية كما قد يفهم من كلام السيوطي، وإنما هو استعمال مجازي حيث استعيرت كلمة (أب) للعم على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

كما كان جده عبد المطلب أيضاً يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم (بابني) حين كان يجلسه على فراشه ويقول : دعو ابني إنه ليُؤنس مُلْكا. وقال عبدالمطلب أيضاً لام أيمن وكانت تحضن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريباً من السّدْرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة"[4].

يرشح ما نذهب إليه من تجوز العربي باستعماله أبي بمعنى عمي أن هذا الاستعمال ما زال شائعاً حتى الآن في بلداننا العربية، هذا، وإن كنا لا نحكم على الفصحى باستعمال العرب في لهجاتهم الدارجة الحديثة، لكن الاختلاف اللهجي في الغالب يكون في الجوانب الصوتية لا في الكلمات، ومن ثم فلا يستبعد أن يكون الاستعمال الحالي لكلمة الأب بمعنى العم مستمداً من الاستعمال القديم ودليلاً عليه أيضاً.

(١) الطبقات الكبير لابن سعد، ٩٨/١.

(٢) مسالك الحنفا- الحاوي، ٢٢٧/٢، ٢٢٨.

(٣) انظر السابق ٩٩/١.

(٤) السابق ٩٧/١، ٩٨.

فخر الرسول –صلى الله عليه وسلم– بجدّه دليل على نجاة الوالدين والجد.

معلوم أن ما يفخر به الإنسان لابد أن يكون أهلاً لأن يفخر به، ومن ثم فحين يفتخر الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حنين بجدّه عبدالمطلب فإن هذا يكون قرينة دالة على أن جده ووالده لم يكونا مشركين، وأنهما ليسا من أهل النار. فقد استأنس السيوطي لنجاة عبدالمطلب بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

" أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب(١)"

وهو – صلى الله عليه وسلم في هذا الرجز، ينتسب لجده عبدالمطلب دون أبيه عبدالله لشهرة عبدالمطلب بين الناس لما رزق من نباهة الذكر وطول العمر بخلاف عبدالله فإنه مات شاباً(٢).

وإذا صح الربط بين فخر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بجدّه وكونه من الناجين، فإنه يلزم أن نسلم أيضاً بنجاة عبدالله والد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأن كليهما عاش في الفترة ولم يشهدا نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم -. وقال السيوطي أيضاً: وأما عبدالمطلب ففيه خلاف والأشبه أنه من أهل الفترة، وممن لم تبلغه الدعوة كرة، وقد استشهد أولئك القبيل بقوله في قصة أصحاب الفيل :

لاهم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك(٣).

---

(١) ورد قول الرسول هذا في صحيح البخاري – الفتح حديث رقم ٤٣١٦.

(٢) انظر فتح الباري لابن حجر ٣٢/٨.

(٣) انظر مسالك الحنفا – الحاوي، ص ٢١٨.

القول بأن الله أحيا والدي الرسول حتى آمنا به.

من بين المسالك التي أوردها السيوطي : أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به "، وقال إن هذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة من حفاظ المحدثين وغيرهم منهم ابن شاهين، والخطيب البغدادي، والسهيلي، والقرطبي، والمحب الطبري، والعلامة ناصر الدين بن المنير، وغيرهم. وقد استدل القائلون بهذا المسلك بحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: حج بنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حجة الوداع فمر بي على عقبة بالحجون وهو باك حزين مغتم فنزل فمكث عني طويلاً ثم عاد إليّ وهو فرح مبتسم فقلت له، فقال ذهبت لقبر أمي فسألت الله أن يحييها فأحياها فآمنت بي وردها الله".

عقب السيوطي بقوله : هذا الحديث ضعيف باتفاق المحدثين ". وقد هممنا ألا نذكر هذا المسلك ذا السند الضعيف لأن غيره يغني عنه، لكن لما رأينا السيوطي ذكره ضمن مسالكه الثلاثة(١) لميل طائفة كبيرة من حفاظ المحدثين وغيرهـم لهذا الرأي – على حد قوله(٢) – رأينا أن نذكره تتميماً للفائدة.

ذكر الإمام القرطبي – رحمه الله – أن حديث أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – السابق ناسخ لأحاديث سابقة عليه، كما صح من أنه عليه السلام استأذن ربه في زيارة والدته والاستغفار لها فأذن له بالزيارة ومنعه من الاستغفار – قال القرطبي :"ولا تعارض والحمد لله؛ لأن إحياءهما متأخر عن النهي بالاستغفار لهما، بدليل حديث عائشة رضي الله عنها، وأن ذلك كان في

---

(١) المسالك الثلاثة التي سلكها السيوطي في رسالته مسالك الحنفا لإثبات نجاة والدي الرسول باختصار هي: ١- أنهما ماتا قبل البعثة، ولا تعذيب قبلها. ٢- أنهما لم يثبت عنهما شرك بل كانا على الحنفية. ٣- أن الله أحياهما حتى آمنا".

(٢) انظر مسالك الحنفا – الحاوي، ص ٢٣٠

حجة الوداع، وكذلك جعله ابن شاهين ناسخاً لما ذكر من الأخبار". ورد القرطبي – رحمه الله – على "من قال إن الحديث في إيمان أمه وأبيه موضوع يرده القرآن والإجماع، قال الله العظيم: (ولا الذين يموتون وهم كفار)[1]، فمن مات كافراً لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة، بل لو آمن عند المعاينة لم ينتفع فكيف بعد الإعادة؟ وفي التفسير أنه عليه السلام قال : " ليت شعري ما فعل أبواي فنزل ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].

عقب القرطبي على ما سبق بقوله : " قال المؤلف (يعني نفسه) : ذكره الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية، وفيه نظر، وذلك أن فضائل النبي –صلى الله عليه وسلم– وخصائصه لم تزل تتوالى وتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله تعالى وأكرمه به"[3].

ثم بين القرطبي أن إحياء الله لوالدي الرسول ليؤمنا فينجوا من النار، إكراماً للرسول– صلى الله عليه وسلم– ليس بالأمر المستحيل، فقال رحمه الله: "وليس إحياؤهما وإيمانهما بممتنع عقلاً ولا شرعاً، فقد ورد في الكتاب إحياء قتيل بني إسرائيل وإخباره بقاتله، وكان عيسى يحيى الموتى، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام أحيا الله تعالى على يديه جماعة من الموتي، وإذا ثبت هذا فما يمنع من إيمانهما بعد إحيائهما زيادة في كرامته وفضيلته مع ما ورد في الخبر"[4].

وأجاب القرطبي عن ما ورد في الآية (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) بقوله : فيكون ذلك قبل إيمانهما، وكونهما في العذاب، والله بغيبه أعلم

(١) سورة النساء، من الآية ٨١.
(٢) البقرة، الآية ١١٩.
(٣) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، ص ٢٣، ٢٤.
(٤) التذكرة للقرطبي، ص ٢٤.

وأحكم"[1].

لكن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رد كل الحديث الذي نص على إحياء والدي الرسول وإيمانهما ثم إعادتهما واصفاً إياه بأنه كذب مختلق، وعلق على كلام "القرطبي في التذكرة وأمثال هذه المواضع بأنه من أظهر الموضوعات كذباً، وأن الأحاديث (التي تثبت نجاتهما) لم ترد في الكتب المعتمدة في الحديث، لا في الصحيح ولا في السنن، ولا في المسانيد ونحو ذلك من كتب الحديث المعروفة، ولا ذكره أهل كتب المغازي والتفسير، وإن كانوا قد يروون الضعيف مع الصحيح؛ لأن ظهور كذب ذلك لا يخفى على متدين.

ثم قال – رحمه الله–[2] إنه لا توبة لمن مات كافراً. مستشهداً بقوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)[3].

ونقول إن كلام شيخ الإسلام صحيح مقبول لو أنه استطاع أن يثبت كفر والد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا غير ثابت، لأن أهل الفترة لا يوصفون بالكفر إلا إذا كانوا ممن بدلوا وغيروا في شريعة سابقة كما فعل عمرو بن لحيّ. أو ثبت عبادتهم للأصنام أو لغيرها، أما حديث الإحياء فإنه إن صح فهو في رأينا زيادة في إكرام الله تعالى لرسوله حتى لا يكون والداه كعامة أهل الفترة، وإنما لكي يصيرا مسلمين، ويحشرا في زمرة المسلمين تكريماً من الله لحبيبه، وإلا فهما ناجيان من النار، وأما حديث مسلم على

(١) السابق.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٢٢٤ وما بعدها.
(٣) سورة النساء، الآية ١٧، ١٨.

افتراض صحته فحمله على المجاز أقوى وأرجح.

خلاصة ما قيل في القضية:

القول الأول:

نجدنا بعد استعراض ما ورد من نصوص، ومما اطلعنا عليه مما لم نرد ذكره –وهو كثير– نقر الرأي القائل بأن والدي الرسول – بفضل الله – ناجيان، وقد ذهب إلى القول به جمع كبير من العلماء، وليس الأمر كما قال المخالفون. نقل أبو حيان أن ابن عباس وقتادة –رضي الله عنهما– في تفسير قوله تعالى (وتقلبك في الساجدين) قالا : أراد وتقلبك في المؤمنين[1]، وعن هذه الآية يقول ابن تيمية كما استدلت الرافضة بالآية على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين[2]. إن مجاهد وسفيان بن عيينة يريان استمرار التوحيد في ذرية إبراهيم – عليه السلام – مستدلين بقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام)[3]. كذلك الأشاعرة من أهل الكلام، والشافعية من الفقهاء، وابن كثير، وابن حجر، والسيوطي، والقاضي عياض، والإمام أبي حامد الغزالي، والإمام القرطبي، والفخر الرازي، وغيرهم ممن جاءوا في العصور المتتالية إلى يومنا هذا قالوا بنجاة الوالدين، ونذكر من المحدثين: العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ المحقق السيد محمد بن رسول البرزنجي، وغيرهم كثيرون. كما يشهد أحد كاتبي هذه الورقة أنه سمع أكثر

---

(1) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٩/١. جاء في تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (وتقلبك في الساجدين) مع أهل الصلاة في الركوع والسجود والقيام، ويقال في أصلاب آبائك الأولين" (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٣١٥، ط. المطبعة الأميرية بمصر، ١٣٤٢ه.

(2) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٩/١.

(3) المقامة السندسية في النسبة المصطفوية للسيوطي بتصرف يسير ضمن الرسائل التسع للسيوطي، ص١٢١، ١٢٢. ط. دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠هـ/١٩٨٥م.

من عشرة من كبار علماء مكة المكرمة يقولون بنجاة والدي الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالوالدان إذن من أهل الجنة الناجين من النار؛ لكونهما من أهل الفترة ولم يثبت أنهما عبدا وثنا أو سجدا له أو تقرباً بذبح ونحوه، بل لم يرد – فيما قرأنا – نص يثبت أنهما أقسما بصنم أو جرى اسمه على لسانيهما كما كانت عادة الجاهليين.

قال السيوطي – رحمه الله – :".... وكذلك نقول في حق أبوي النبي – صلى الله عليه وسلم – إنهما لم يثبت عنهما حالة كفر بالله، فلعل حالهما كحال زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي بكر الصديق وأضرابهما[1]. وقال – رحمه الله – في رسالة أخرى : " وذهب المحققون في شأنهما إلى ما هو أقوى مدركاً، وأصح مسلكاً، وهو أن حكمهما حكم من لم تبلغه الدعوة من أهل الفترة؛ إذ لم ثبت أنهما دعيا وعاندا، وكل مولود يولد على الفطرة، مع ضمية أنهما قبضا في أوان الشباب، ولم يبلغا سن من بلغ الأحقاب فلم يسع عمرهما الوقوف على الأخبار بالإخبار من الأخبار". وقال : " وقد ورد في أهل الفترة أحاديث صحاح وحسان بأنهم موقوفون للامتحان بين يدي الملك الديان فمن سبقت له السعادة أطاع ودخل الجنان، ومن سبقت له الشقاوة عصى وأدخل النيران، ومن هنا نشأت قاعدة من لم تبلغه الدعوة فأطبق على نجاته من له بمذهب الإمامين الشافعي والأشعري قدوة. وأجابوا عن الأحاديث التي بعضها في صحيح مسلم بأنها منسوخة بالأدلة، وقد أوردوا على ذلك من التنزيل أصولاً منها : قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)[2].

---

(1) مسالك الحنفا – الحاوي، ص ٢٢٦.

(2) الإسراء، الآية: ١٥، وانظر: المقامة السندسية في النسبة المصطفوية، الرسائل التسع، ص ١١٧.

القول الثاني:

إن الله أحياهما فآمنا إكراماً لحبيبه صلى الله عليه وسلم، وأن هذا قد وقع بعد صدور الحديث الذي يتحدث عن سماح الله للنبي بزيارة والدته دون السماح بالاستغفار لها، ومستند هذا الرأي ضعيف كما ذكرنا سابقاً[(١)].

والحديث الذي أخرجه أحمد عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله أين أمي ؟ قال : أمك في النار، قلت فأين من مضى من أهلك ؟ قال : أما ترضى أن تكون أمك مع أمي "[(٢)].

القول الثالث :

إنهما في النار وقد أخذ أصحاب هذا القول بظاهر النصوص النبوية. ومنها أحاديث نسختها آيات وأحاديث متأخرة عنها زمنياً، وكذا الآيات القرآنية التي تثبت عدم مغفرة الله للمشركين، والتي تثبت قبول التوبة ممن يذنبون ثم يتوبون، أما الكفار فلا توبة لهم، وهذا مردود عليه كما بينا سلفاً، لأن أصحاب هذا الرأي فصلوا في القضية وحكموا بأن الوالدين من الكفار ثم راحوا يطبقون أحكام الكفر عليهما، وهذا حكم على وصف غير مسلم به، ومن ثم فهو مردود. وممن قال بكفر الوالد الإمام النووي وملا على القاري، ونسب إلى الإمام أبي حنيفة لعبارة وردت في بعض كتبه نصها " ووالدا الرسول ماتا على الكفر" ولكن العلامة اللغوي الفقيه السيد محمد مرتضى الزبيدي شارح القاموس نفى ذلك عن أبي حنيفة وقال إن العبارة حرفها الناسخ، وأن أصلها : " ووالدا الرسول ما ماتا على الكفر" فظن الناسخ أن (ما) ليست النافية وإنما هي مكررة فحذفها، واستدل بالعبارة التي تلتها من كلام أبي حنيفة وهي قوله: "وأبو طالب عمه مات كافراً".

---

(١) انظر ص (٤٣٤).

(٢) انظر التعظيم والمنة في أن أبوي النبي في الجنة للسيوطي، ص ١٣.

والعبارة هكذا لا تستقيم إلا على قول الزبيدي، لأن أبا حنيفة لو قال بكفر الثلاثة لقال ووالدا الرسول وعمه أبو طالب ماتوا على الكفر[(١)].

القول الرابع :

إنهما كانا من الحنفاء، يقول السيوطي : ولا يظن بكل من كان في الجاهلية أنه كان كافراً، فقد كان جماعة تحنفوا وتركوا ما كان عليه أهل الشرك وتمسكوا بدين إبراهيم عليه السلام وهو التوحيد كزيد بن عمر بن نفيل، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل فكلهم محكوم بإيمانهم في الحديث ومشهود لهم بالجنة، فلا بدع أن تكون أم النبي صلى الله عليه وسلم منهم"[(٢)]. أي وأبوه.

القول الخامس :

إن والدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – يمتحنان ضمن أهل الفترة يوم القيامة، حيث وردت عدة أحاديث يقوي بعضها بعضاً، تنص على ذلك، منها ما أخرجه الإمام أحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهويه في مسنديهما، والبيهقي في كتاب الاعتقاد وصححه عن الأسود ابن سريع أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : أربعة يمتحنون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول : رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها"[(٣)]. وقد اختار الشيخ محمد الأمين

---

(١) انظر سداد الدين، ص ٧.

(٢) سداد الدين، ص ٢٦، ٢٧.

(٣) أورده السيوطي في مسالك الحنفا – الحاوي للفتاوي، ص ٢٠٤.

الشنقيطي هذا الرأي وقال: " وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد[1]. وقد ذكرنا سابقاً رأي البيهقي في دلائل النبوة حيث ذهب إلى أن الوالدين الكريمين في النار[2]. ووجدناه في كتاب الاعتقاد يحكم بصحه إسناد الحديث الذي يثبت أن من مات في الفترة يمتحنون[3]. ولعل تأليف البيهقي لكتاب الاعتقاد جاء متأخراً عن تأليف للدلائل مما يدل على أنه قد غير رأيه.

بعد ما ذكرنا من أقوال وأدلة تثبت نجاة والدي المصطفى – صلى الله عليه وسلم– وأقوال وأدلة لمخالفيهم أقواها ما ورد في صحيح مسلم (إن أبي وأباك في النار) وهو دليل غير قطعي الدلالة لاحتمال أن تكون كلمة أبي مستعملة فيه على سبيل المجاز، لأن الحديث ورد في سياق عطف الرسول وشفقته على السائل فأراد أن يسري عنه حزنه، كما أنه ظني الثبوت كما قلنا سلفاً لكونه حديث أفراد، ولأن بعض رواياته لم ترد فيها تلك العبارة، وإذن فوالدا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بفضل الله – ناجيان.

أربعة أقوال بالنجاة وقول واحد بعدمها، والذين قالوا بالأربعة الأقوال مجتمعين عددهم أكثر بكثير ممن حكم بكونهما من أهل النار، وأنهما ماتا كافرين وأن قرابتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفعهما وما إلى ذلك من عبارات أقل ما يقال عنها إن فيها جفوة وشدة.

والأقوال الخمسة تبين قطعاً أن الأمر ليس محتوماً، فالاختلاف قائم

(١) أضواء البيان للشنقيطي، ٣/٥٧٣.

(٢) انظر ص (٥) من هذا البحث.

(٣) انظر ص (٢٠٢، ٢٠٣) من كتاب الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للحافظ البيهقي، تحقيق أحمد بن إبراهيم أبي العينين، ط. دار الفضيلة، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ومن ثم فليس لفريق أن يصادر على رأي الآخرين وأن يحملهم على اتباع رأيه. لكننا لو افترضنا خطأ القائلين إن والدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الناجين فلن يترتب على خطئهم هذا ما يسيء إليهم حيث إنه لم يترتب على خطئهم ضرر ألبتة، ولا فوات حق، ولا ترتب شيء في الذمة[1] إيذاء لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بل إن صنيعهم هذا يسره؛ لما يعلم – صلوات الله وسلامه عليه – أنه لا دافع لهم إلى محاولة إثبات ما ذهبوا إليه سوى الحب لمقامه الشريف.

أما على افتراض خطأ الذاهبين إلى أن والدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – في النار فإنهم يكونون قد أساءوا إلى المقام النبوي الشريف وآذوه، ومن ثم فإنهم يُساءلون عن الدافع وراء ذهابهم إلى ما ذهبوا إليه؛ ولا ندري بماذا يجيبون. ثم إن في إيذاء الرسول –صلى الله عليه وسلم– وعيداً باللعنة في الدنيا والآخرة (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)[2].

ومن الجدير بالاهتمام أننا لم نجد – فيما قرأنا –أحداً من الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – خاض في هذا الحديث أو صرح بعدم نجاة والدي النبي –صلى الله عليه وسلم– وأقل تفسير لهذا أنه كان حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهنا يفرض السؤال نفسه: ألم يكن من الأولى للفريق الذي يرى أن والدي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل النار، عدم الخوض في هذا القول اتباعاً لأدب الصحابة – رضي الله عنهم – وتأسياً بهم؟.

(١) نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين- الرسائل التسع للسيوطي، ص ٢٠٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٥٧).

قائمة المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الجنكي الشنقيطي، ط. دار علوم الفوائد، بدون تاريخ.

٣. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي، تحقيق: أحمد بن إبراهيم أبي العينين، د. دار الفضيلة. الرياض، ٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤. البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق عبدالله التركي، ط. دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، مصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٥. تاج العروس للزبيدي، تحقيق حسين نصار وآخرين، ط. الكويت، ١٩٦٩م.

٦. تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط. بيت الأفكار الدولية، الأردن.

٧. تاريخ الطبري، اعتنى به أبوصهيب الكرمي، ط. بيت الأفكار الدولية، الأردن، بدون تاريخ.

٨. تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي، تحقيق د. عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى.

٩. التحرير والتنوير للطيب بن عاشور، ط. الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

١٠. تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للمباركفوري، ط. بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، بدون تاريخ.

١١. التذكرة في أحوال الموتى والآخرة للقرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ط. دار الجيل، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٢. التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة للسيوطي، تحقيق

الشيخ حسنين مخلوف، ط. دار جوامع الكلم، مصر، بدون تاريخ.

١٣. تفسير البغوي – معالم التنزيل، تحقيق محمد عبدالله النمر وآخرين. ط. طيبة للنشر، الرياض، ١٤٠٩هـ.

١٤. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة. ط. دار طليبة للنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٥. التفسير الكبير للفخر الرازي، ط. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٦. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ط. المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٤٢هـ.

١٧. توظيف المعرفة العلمية في استنباط الأحكام الشرعية لاستعمالات مياه الصرف الصحي المدنية المعالجة، أ.د/ عمر سراج أبورزيزة، بحث منشور في حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، السنة السادسة، العدد الثالث عشر ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٨. الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي، تحقيق: د. عبدالله التركي، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

١٩. حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي، ط. مطبعة الحقيقة، إسطنبول، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٠. الخصائص لابن جني تحقيق: محمد علي النجار، ط. المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٢١. الدرج المنيفة في الآباء الشريفة، الرسائل التسع للسيوطي. ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي

البغدادي، ط. إدارة الطباعة المنيرية، مصر، بدون تاريخ.

٢٣. السبل الجلية في الآباء العلية للسيوطي، الرسائل التسع، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٤. سَداد الدَّين وسِداد الدَّين في إثبات النجاة للوالدين، تأليف السيد محمد بن رسول البرزنجي الحسيني المدني. ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م.

٢٥. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مجدي فتحي السيد، ط. دار الصحابة بطنطا، مصر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٢٦. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط٣، دار العلم والملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

٢٧. صحيح البخاري، موسوعة الحديث الشريف، الكتب الستة، مراجعة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، ط. دار السلام للنشر، الرياض، بدون تاريخ.

٢٨. صحيح مسلم بشرح النووي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٩. صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف، الكتب الستة، مراجعة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، ط. دار السلام للنشر، الرياض، بدون تاريخ.

٣٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عبدالعزيز بن باز وآخرين. ط. دار المعرفة، بيروت.

٣١. القاموس المحيط للفيروز أبادي، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٠م.

٣٢. كتاب الطبقات لابن سعد الزهري، تحقيق: د. علي محمد عمر نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م،١٤٢١هـ.

٣٣. كتاب العين للخليل، تحقيق: د. مهدي المخزومي، السامرائي، ط. العراق.

٣٤. الكلام على الفطرة لابن تيمية، منشور ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٣٥. مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن محمد قاسم وآخر، ط. بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز.

٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

٣٧. مسالك الحنفا في والدي المصطفى مطبوعة ضمن كتاب " الحاوي للفتاوى"، تأليف العلامة السيوطي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣٨. المسعى الشرعي، الأطوار الطاقة الاستيعابية، والمساحة، من وجهة نظر العلم الحديث. أ.د/ عمر سراج أبورزيزة، بحث منشور بحولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية – بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة، السنة السادسة، العدد السادس عشر ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٣٩. المقامة السندسية في النسبة المصطفوية، الرسائل التسع للسيوطي، ط. دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤٠. نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض لأحمد شهاب الدين الخفاجي، ط. المطبعة الأزهرية، مصر ١٣٢٧هـ.

٤١. نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين، الرسائل التسع، ط. دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الفهرس

***